هذه صورة مصغّرة جدّاً لروسيا التي عرفتها فأحببتها. وقد أحببتُ منها مداها الحسّي والمعنوي، وأحببتُ شعبها لأنّه شعب إنساني، مثالي، ولأنّه شعب مؤمن تقي. وما إيمانه غير جانب من مثاليته. والأدب الروسي إن حفل بشيء فبالمثاليين تتحطّم مثاليتهم على صخور الواقع القاسية... فلا يقنطون، وعن الكفاح لا يكفّون. وما الثورة الهاصرة التي قام بها الروس في الزمان الأخير إلّا انتفاضة جبّار صبر على الحيف دهراً فنفد صبره وراح يطلب لنفسه وللعالم إنصافاً وحريةً وسلاماً. أمّا أنّ الثورة حاولت أن ترفع الحيف بالحيف، فذاك شأن الثورات على مرّ الدهور. وهو موطن من مواطن الضعف فيها.

لا شكّ في أنّ الثورة قد بدّلت كثيراً في حياة روسيا المادية والسياسيّة والاجتماعيّة. حتى إنّ من عرفها مثلي قبيل الحرب العالميّة الأولى لا يكاد يعرفها بعيد الحرب الثانية. فهي تنتقل انتقالاً خاطفاً من بلاد زراعيّة متأخرة إلى بلاد صناعية من الطراز الحديث. وأنا ما أزال أذكر كيف كنّا لثلاثة عقود خلت إذا تحدّثنا عن الاختراعات والمخترعين في العالم، لا تجد اختراعاً روسيّاً واحداً نباهي به إلّا «الساموفار»!... أمّا اليوم ففي روسيا مشروعات كهربائيّة وهندسة ومصانع ضخمة ليس لها نظير في العالم. ويقال إنّ